

التوبة.. باب مفتوح على رحمة الله



يقول الإمام زين العابدين (عليه السلام): «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي دَلَّنَا عَلَى التَّوْبَةِ الَّتِي لَمْ نَعْرِفْهَا إِلَّا مِنْ فَضْلِهِ، فَلَوْ لَمْ نَعْتَدِدْ مِنْ فَضْلِهِ إِلَّا بِهَا لَقَدَّ حَسُنَ بِلَاؤُهُ عِنْدَنَا، وَجَلَّ إِحْسَانُهُ إِلَيْنَا، وَجَسُمَ فَضْلُهُ عَلَيْنَا، فَمَا هَذَا كَانَتْ سُنَّتُهُ فِي التَّوْبَةِ لِمَنْ كَانَ قَبْلَنَا. لَقَدَّ وَضَعَ عَنَّا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَلَمْ يَكْلِفْنَا إِلَّا وَسْعًا، وَلَمْ يُجَشِّمْنَا إِلَّا يُسْرًا، وَلَمْ يَدْعُ لِأَحَدٍ مِنَّْا حُجَّةً وَلَا عُذْرًا، فَالْهَالِكُ مِنَّْا مَنْ هَلَكَ عَلَيْهِ، وَالسَّعِيدُ مِنَّْا مَنْ رَغِبَ إِلَيْهِ.»

يتحدَّث (عليه السلام) في هذا الدُّعاء عن قيمة التوبة وأهميتها، كوسيلةٍ جعلها الله تعالى رحمةً لعباده المذنبين العاصين، وطريقاً كي يرجع العباد إلى ربِّهم بعد أن حاصرتهم الخطايا، ووقعوا في مطبَّاتها، كما أن التوبة طريق خلاصنا من عقدة الذنوب والمعاصي، كي نعود عباداً صالحين مهتدين إلى الخير والفلاح.

والله تعالى برحمته ترك خطيئة التوبة والإنابة إليه مفتوحاً في أيِّ وقت، فضلاً منه وتكرماً على عباده، كي يتعرَّفوا إلى مواطن رحمة الله التي لا حدَّ لها حتى مع العاصين والمعتدين على حدوده، فالحمد لله أن أوضح لنا الطريق، ودلَّننا على معرفة التوبة سبيلاً لرحمته، وعوداً إلى الاستقامة على شرعته.

وينتقل الإمام (عليه السلام) في هذا الدُّعاء إلى الكلام عن تمام الذمِّمة الربانية على عباده، حيث لم يثقل عليهم، ولم يكلِّفهم ما لا يستطيعون، وجعل التكليف متحركةً في دائرة اليسر والسهولة.

فالله تعالى لم يشق علينا بالأفعال والطاعات إلا في حدود قدراتنا الطبيعية التي وهبها لنا، ومَن

يسلك طريق الحق ويمش في طاعته، يعرف كم هي اللذة الروحية والراحة النفسية والانبساط الشعوري الرائع، والمرونة العقلية المنفتحة التي يحرص لها، جرّاء ما دعانا الحق إليه من الذكر والخشوع والتأمل والعبادة الخالصة الحق وحده.

يقول سبحانه وتعالى: (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ) (الشورى/ 25)، وهكذا كانت التوبة سبيلاً لتصحيح المسار وإصلاح الذات وتقويم الانحراف، للعودة إلى خط الاستقامة، ولولا دلالة الحق لنا عليها، وقبوله لنا، وغفرانه لذنوبنا من خلالها، وإبعادنا عن اليأس من رحمته، لكننا من الهالكين المتخبطين دائماً في وحول الخطيئة وفقدان الروح وقسوة اليأس، وتلك هي النعمة الكبرى التي لا بد لنا من أن نحمد الحق عليها، ونقدّم إليه الشكر عليها. ووضع عننا ما لا طاقة لنا به، ولم يكلّفنا إلا ما تتّسع له قدراتنا العادية، ولم يجشّمنا إلا ما كان يسيراً من الأعمال والموافق، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: (وَيَسَّعْ عَندهمُ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) (الأعراف/ 157). ولهذا لم يبق لأحد من المسلمين من أتباع النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) حجة ولا عذر في الابتعاد عن الطاعة، من خلال طبيعة التكاليف المتحركة في دائرة اليسر والسعة والسهولة.

وما دامت التوبة فرصةً أمامنا للعودة الحقيقية إلى الحق، فلنُبادر إليها بكل وعي وقوةٍ وشجاعةٍ ومسؤوليةٍ، كي نعيد تصويب حركتنا ومواقفنا وسلوكياتنا على أساس رضا الحق ومحبتته. إن التوبة بابٌ مفتوحٌ على رحمة الحق، فلنستثمر طاقاتنا في ولوج هذا الباب، ففيه كل الخير والسلامة والسعادة والفلاح في الدنيا وفي الآخرة.

كيف تتحقّق التوبة؟

كيف تتحقّق التوبة؛ هل يكفي الحق من عباده بأن يعلنوا التوبة حتى يحظوا بها؟ نعم، باب التوبة مفتوح لمن يريد، لكنّ لذلك مقدّمات ذاتية.

أولها الاعتراف وترك المكابرة، بأن يؤكّد المرء لنفسه أنّه عصى الحق، وأنّه أساء في علاقته معه، ثمّ يندم ويستنكر فعلته، ويشعر بأنّه ما كان ينبغي أن يبادل الحق بالعصيان. وبعدها، عليه أن يصلح ما بدر منه وما اقترفته يده تجاه الخالق وتجاه المخلوق.

آليات التوبة:

- الندم على ما مضى.

- العزم على ترك العود إليه أبداً.

- أن تؤدّي إلى المخلوقين حقّهم حتى تلقى الحق أمّلس عليك تبعة.

- أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها فتؤدّي حقّها.

- أن تذيب الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية.

والتوبة حتى تكون شاملةً، لا بدّ من أن لا تقف عند حدود الذنوب المتعارفة ممّا اعتدناه من ترك الواجبات والإتيان بالمحرّمات، بل تشمل أيضاً التقصير في أداء المسؤوليات العامّة.

